

ابن خلدون

نص: فاطمة شرف الدين
رسوم: حسن عامه كن طارمسري

ابن خلدون



نص: فاطمة شرف الدين

رسوم: حسن عامه كن طارمسري

كلمات
KALIMAT

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
www.kalimat.ae

ابن خلدون
تأليف: فاطمة شرف الدين
رسوم: حسن عامه كن طارمسري
إصدارات كلمات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
2017 ©
ISBN: Epub-978-9948-18-136-1

KALIMAT GROUP • مجموعة كلمات



يناديني النّاس "ابن خلدون"، لكنّ اسمي الكاملَ هو عبد الرّحمن بن محمّد بن محمّد بن محمّد بن الحسن بن محمّد بن جابر بن محمّد بن إبراهيم بن عبد الرّحمن بن خلدون. ولدتُ في تونس عام 1332م من أسرة ذات جاه ونفوذ، أفرادُها مثقّفون، يقدّرون أهميّة العِلم والأدب. وكان أجدادي يشغلون مناصبَ سياسيّة ودينيّة مهمّةً في الأندلس، لكنّهم تركوها وأتوا إلى تونس عندما سقطتْ أشبيليا من سلطة العرب في 1249م.

قضيتُ حياتي في العملِ السّياسي وفي العِلم والبحث والكتابة؛ ويشهدُ التّاريخُ بأنّي من أهمّ روّاد عِلم التّأريخ والاقتصاد والفقه والرّياضيّات والفلك. إنّي أُعتبَر مؤسّس علم الاجتماع، وقد توصّلتُ إلى نظريّات باهرة في هذا المجال حول قوانين بِناء الدّولةِ وازدهارِها وأسبابِ سقوطِها.



كان والدي معلّمي الأوّل، فدرّسني القرآن الكريم
وحفّظني إيّاه قبل أن أبلغَ سنّ السّابعة. وبما أنّ مركز
عائلتي الاجتماعيّ كان راقيًا جدًّا ، فقد سنحتْ لي الفرصُ
أن أتلقّى الدّراسة مع أفضلِ المعلّمين. وأهمّ أساتذتي
كان العالِم العَبَلي الآتي من تَلَمْسان في الجزائر.
تعلّمتُ على يد هذا الفيلسوف الرّياضيّات وعِلم المنطق
والفلسفة ، وقد عرّفني على أعمال ابن رشد وابن سينا
والرّازي والطّوسي. درستُ أيضًا عِلم اللّسانيّات العربيّة
وتعمّقتُ في دراسة الفقه والشّريعة.



في سنة 1349 م، حصل شيءٌ مريعٌ في تونس وفي بلادٍ كثيرةٍ أخرى.
لقد انتشرَ مرضُ الطّاعون وأدّى إلى موت آلاف البشر، من بينهم
أبي وأمّي وعددٌ كبيرٌ من أقاربي وأساتذتي.
طريقَتي الوحيدة لتخطّي هذه الأحداث المؤلمة جدًّا كانتْ في
التّركيز على العِلم. فأكملتُ دراستي وتعمّقتُ في المواضيع العِلميّة
والأدبيّة والاقتصاديّة. كا ن ذلك شغفي الوحيد في الحياة؛
كنتُ معظمَ الوقـ ـت أقرأ وأحلّلُ وأكتبُ نظريّاتي الخاصّة في
المواضيع المختلفة.



في سنة 1352 م، اتّخذتُ وظيفةً، فعمِلتُ كاتبًا لأمير تونس أبي إسحق الحَفصي. كانتْ مهمّتي كتابة نصوصِ الوثائق الرّسميّة للسّلطنة؛ لكن بصراحةٍ ، لم تكنِ الوظيفة منصبًا سياسيًّا كما كنتُ أحبّذُ؛ وكانت مملّةً جدًّا بالنّسبة لي ، فلم أمكثْ فيها طويلاً. حالما تلقّيتُ دعوةً من السّلطان أبي عَنان المَريني في المغرب، عام 1354م، تركتُ وظيفتي ورحلتُ عن تونس بصحبةِ أستاذي الجليل العُبَيلي.



كان هذا السّلطانُ يعرفُ نسَبي، وقد وصلَه خبرُ ثقافتي
الشّاملة وذكائي، فأتتْ دعوتُه لي كي أكملَ عِلمي هناك على
أيادي روّاد العِلم والأدبِ الّذين نزَحوا من تونس والأندلس.
في فاس، حين التقيتُ بالسّلطان أُعجِبَ بي كثيرًا،
وبعد سنتين من إقامتي، عيّنَني عضوًا في مجلسِه العِلمي،
وأمينًا لسرّه وكاتبًا للشؤون الملكيّة. لكنّي بعد مدّةٍ من
اتّخاذي هذا المنصب، بدأتُ في مراسلةِ صديقٍ عزيزٍ لي من
بجاية في الجزائر، كان مسجونًا في فاس، اسمه أبو عبد الله
الحَفصي. عندما كشفَ السّلطان أبو عَنان أمرَ هذه المراسلات،
اتّهمَني بالتّآمرِ مع المسجون ضدّه؛ فطُردْتُ من وظيفتي،
وحُكمَ عليّ بالسّجن لمدّة اثنين وعشرين شهرًا.
كان ذلك سنة 1357م، يعني كان عمري خمسةً وعشرين عامًا.



بعد بضعةِ أشهرٍ في السّجن، توفّي أبو عَنان المَريني، فأطلَقَ سراحي الوزيـر حسن بن عمر، وأعادَني إلى وظيفتي السّابقة. وبما أنّي كنتُ ضدّ سياساتِ خليفة أبي العنان، وهو السّلطان أبو سالم إبراهيم الثّالث، ساعدتُ عمّه المنفيّ من البلاد في مخطّطٍ للانقلابِ عليه. وبالفعل، تمكّنّا من الإطاحَة بالسّلطان في سنة 1358م.



وحين صار العمُّ سلطانًا على البلاد، أعطاني منصبًا أرضاني كثيرًا، وهو قاضٍ عامٌّ في الأمور الاجتماعيّة وأمانة سرّ الدّولة.
في تلك الفترة تزوّجتُ من ابنة ضابطٍ حَفصيٍّ كبير في فاس.
التّقلّبات السّياسيّة في المغرب كانتْ كثيرةً، وبما أنّي لم أبقَ في مركزي بعد تغيُّر الحكم لأكثر من مرّةٍ، صمّمتُ على الرّحيل إلى غِرناطة في الأندلس عام 1362م.



كنت متأكِّدًا من أنّ أمير غِرناطة محمّدًا الخامس سيستقبِلني بحفاوةٍ وسيهبُني مركزًا سياسيًّا عاليًا؛ فقد ساعدتُه كثيرًا حين كان منفيًّا عن بلادِه في فاس. وبالفعلِ، حصلَ ما توقّعتُه في غرناطة. ولكن سرعان ما حدثَ نوعٌ من التّنافُس بيني وبين أحد وزراء الأمير، وكان اسمه ابن الخطيب. اتّهمَني ابن الخطيب بأنّي أُستغِلّ ثقَة الأمير محمّدِ الخامسِ بي، وأقودُه نحو سياساتٍ قد تهدِّدُ السِّلْمَ في البلاد. وبسبب شكوكِه ومخاوفِه من نواياي، طلبَ منّي أن أتركَ البلاد وأعودَ إلى شمال إفريقيا.

وهذا ما حصل، وكنّا قد أصبحْنا في سنة 1365م.



تركتُ غرناطة متّجِهًا إلى بجاية، وكان أميرُها في تلك الفترة صديقي القديم عبد الله الحَفصي، فوَلّاني رئاسةَ الوزارة. كان جمعُ الضّرائب من القبائل البربريّة من أصعبِ مَهامّي. لكن نتيجةً لذلك، طوّرْتُ علاقاتي مع القبائل فوثِقوا بي وأحبّوني. للأسف، بعد ذلك بسنةٍ واحدةٍ، قُتلَ الأمير في حربٍ ضدّ ابن عمّه أبي العبّاس. فاوضْتُ الحاكم الجديد كي أبقى في منصبِ رئيس الوزراء، فنجحتُ في ذلك، واحتفظتُ بِضعة أعوامٍ بهذا المنصبِ، إلى أن حاربَ عبد العزيز المريني أبا العبّاس وانتزَعَ السّلطةَ منه سنة 1370م. حاولتُ الهربَ، لكنّهم قبَضوا عليّ ووُضِعتُ في السّجن بضعة شهورٍ.



بقيتُ أتقلّبُ في مواقفي السّياسيّة، فأتنقّلُ بين قبائل
بني رياح البربريّة، أسْتَميلُها مرّةً إلى هذا السّلطان ومرّةً إلى
سلطانٍ آخر. لكنّ تقلّباتي الدّائمة أغضبتِ الجميعَ،
فقرّرتُ الابتعادَ قليلاً. سافرت إلى الأندلس، وهنا ك لم ألقَ
عند بني الأحمر ما كنت أنتظره من استقبالٍ واهتمام.
وسبب ذلك كان بالطّبع تقلّباتي السّياسيّة ودعمي لوزيرهم
السّابق المغضوب عليه لِسان الدّين بن الخطيب. لذلك
عدت إلى شمال إفريقيا، واتّجهت إلى غرب الجزائر لأقيم مع
إحدى القبائل البربريّة في بلدةٍ اسمها قلعة ابن سلامة.
عشت هنا ك أربع سنواتٍ تفرّغتُ خلالها للكتابة.



بعد ذلك، عدتُ إلى تونس وكانتِ السّلطة قد أصبحتْ في يد أبي العبّاس، الّذي رحّبَ بِعودتي واستقبَلني في قصرِه. تمكّنتُ خلال هذه الفترة من أن أتفرّغَ للكتابة. فأكملْتُ كتابَ "تاريخ العالم". وحين قدّمتُ نسخةً من عَملي المكتمِل لأبي العبّاس، لم يُعجبْه إهمالي لذِكْرِ المدائح المعتادَة للحاكِم في مُقدّمة الكتاب، فتَزعزَعَتْ علاقتُنا واتّهمْتُ بعدم الوفاء. وبحجّة أنّني أريدُ الذّهاب إلى مكّة المكرّمة، أُعطيتُ إذنًا بالسّفر. لكنّي قرّرتُ الإبحار إلى القاهرة بدل التّوجُّه إلى مكّة.



كان اسمي كسِياسيٍّ ومُفكّرٍ وفيلسوفٍ معروفًا في مصر؛ لذلك كنتُ أُدعى إلى كثيرٍ من المجالس الفكريّة والنّقاشات العِلميّة. أعجِبتُ بالقاهرة كثيرًا، وقلتُ عنها آنذاك: " من لم يرَ القاهرة، لا يعرف قوّة الإسلام." فبينما كانتِ البلادُ المسلمةُ تُعاني من حروبٍ عدّة، كانتْ مصر، تحت حُكم المماليك، مُزدهِرةً اقتصاديًا وثقافيًا. في سنة 1384م، عُيّنتُ في مدرسة القمحيّة أستاذًا للفقْه المالكي، ووُلّيتُ أيضًا وظيفةً ثانية مهمّة جدًا، حيث أصبحتُ قاضي المذهب المالكي.



في شهر نوفمبر من تلك السّنة، طلبتُ من زوجتي وأبنائي الّذين كانوا يعيشون في المغرب أن يتبعوني إلى مصر.
لكنّ السّفينة الّتي ركبوها تعرّضتْ لعاصفة بحريّة كارثيّة، فغرقَتْ وتوفّي معظم ركّابها. في هذا الحادثِ المريع توفّيَتْ زوجتي وبناتي الأربع، ونجا ابنايَ.
كم كان ألمي وحزني عظيمين على خسارتي!



فِي الفترة الّتي تلتْ هذه الأحداث، اتّجهتُ إلى مكّة المكرّمة للحجّ. كنتُ بحاجةٍ إلى التعبُّدِ واللّجوء إلى ربّي لتخَطّي الصّعوبات الّتي أمرُّ بها. بعد تلك الرّحلة عدتُ إلى مصر، وتولّيتُ التّدريسَ فِي مختلفِ مدارس القاهرة. الأعوامُ الّتي قضيْتُها فِي مصر كانت ممتلئة بالأحداث السّياسيّة والمؤامرات والصّراعات.

كنتُ ناشطًا فِي حقلِ السّياسة ، وقد تقلّبتْ علاقتي بالسّلطان بَرقوق عدّة مرّاتٍ، اتُّهمتُ فيها بالتّآمر ضدّه.



انتقلَ الحكمُ في 1401م إلى السّلطان فرج، وهو ابن بَرقوق.
وبما أنّ الغازي المغولي تَيمورلَنك كان يُحا صر دمشق، قرّرتُ مرافقة الحَملةِ المصريّة لمحاربتِه في الشّام. تولّيتُ أنا مهمّة الاتصال بالغازي مباشرةً للتّفاوض معه، فأُنزِلتُ من خلف سور المدينة بالحبال كي يوصلّني رجالُه إليه. أجريتُ مع تيمورلنك سلسلةً من النّقاشات العميقة عن السّياسة والاقتصاد وعِلم الاجتماع، فأُعجِبَ بأفكاري وبدَهائي في المفاوضات بشأن الصُّلْح. نزلتُ عنده ضيفًا لمدّة سبعة أسابيع، طلبَ منّي خلالها كتابة تقريرٍ مفصّلٍ عن بلاد المغرب، ففعلتُ. وحين عدتُ إلى مصر، لم أتردّدْ في كتابة تقريرٍ مماثلٍ عن ا لمغول، وعن شخصيّة تيمورلنك بالذّات.



كما ترون، كانتْ حياتي مليئةً بالتّقلّبات السّياسيّة،
ويُقال إنّي أتّصف بحبّ الظّهور والثّقة بالنّفس.
أنا فعلاً كذلك. كيف لا وأنا شديدُ الذّكاء والدّهاء السّياسيّ،
وعندي شغفٌ بالعمل والخوض في تجارب جديدةٍ.
أنا عالمٌ وفيلسوفٌ ومحلّلٌ اجتماعيٌّ وسياسيٌّ، وقد كتبتُ
في حياتي عددًا كبيرًا من الكتب أعرضُ فيها نظريّاتي في
مختلف المواضيع.



أُعتبَرُ من مؤسّسي عِلم التّأريخ، فأنا أوّلُ باحثٍ في العالمِ يقومُ بدراسةِ التّاريخ كمادّةٍ علميّةٍ. لقد نقلتُ عِلم التّأريخ من كونه مادّةً تصفُ الأحداثَ التّاريخيّة والسّياسيّة بشكلٍ سطحيٍّ، إلى مادّة تحليليّة تذكرُ الأحداثَ وتُعلّلُ الأسبابَ الّتي أدّتْ إليها. والمميّزُ في نظريّاتي هو أنّها تنطبقُ على كلّ المجتمعات وفي كلّ العصور؛ لذلك يعتبرُني العلماءُ والمفكّرون أوّلَ من قدّم دراساتٍ تحليليّةً عن تاريخ الحضارات.



وقد قادتْني دراستي العلميّة للتّاريخ إلى التّوصُّلِ إلى تأسيس عِلم الاجتماع، وهو علمٌ موضوعُه العمرانُ البشريّ. أرتكِزُ في نظريّاتي في هذا العلم على فكرةِ أنّ كلّ الظّواهر الاجتماعيّة ترتبطُ ببعضها. فلِكلّ ظاهرةٍ سببُها، وهي في الوقت ذاته سببٌ للظّاهرة الّتي تَليها. لذلك كان مفهومُ العمران البشريّ عندي يشملُ الظّواهر الاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة. الاجتماعُ الإنسانيّ هو عمرانُ العالم وأنا أعرضُ أحوال هذا العمران مثل العيش في السّلم أو إقامة الحروب أو العصبيّة الدّينيّة والعنصريّة. أعرضُ أيضًا القوانينَ الّتي تقومُ عليها الصّناعة والتّجارة في المجتمعات، فأبْني نظريّاتي بعد تحليل الأسباب والنّتائج.



فكرتي الأساسيّة هي أنّ الإنسانَ بطبيعتِه يعيشُ ضمن مجتمعٍ، وهذا المجتمعُ يكوّن شعبًا ، والشّعب يعيشُ على أرضٍ محدّدةٍ. ولكي يتمكّنَ الشّعبُ من التّعايشِ السّلمي ، يجبُ أن يكونَ لديه حاكمٌ؛ والحاكمُ المؤهّلُ باستطاعتِه أن يستفيدَ من طاقات شَعبِه البشريّة والعُمرانيّة كي يؤسّسَ دولةً. ومن الطّبيعي أن تمرّ الدّولة بمراحلَ مختلفةٍ من الازدهار والانهيار. إذًا الاجتماع الإنسانيّ ضروريٌّ ، والإنسان مدنيٌّ بطبْعه ، فلا يستطيعُ العيش إلاّ في مجتمعٍ. هذا هو ما يؤدّي إلى العُمران.



إضافةً إلى ذلك، تعمّقتُ في عِلم الاقتصاد، فدرستُ الأساليبَ الإنتاجيّة الّتي مرّتْ بها المجتمعات البشريّة، وانتقالَ هذه المجتمعات من البَداوة إلى الحضارة، أي من الزّراعة ورِعاية الحيوانات إلى الصّناعة والتّجارة. أركّزُ في تحليلي على أنّ الصّناعة هي السّبب الأساسيّ في الازدهار الحضاري؛ فالصّناعة تزدهرُ بالتّعاون الإنسانيّ وتؤدّي بالتّالي إلى العُمران الحضريّ. أنواع الصّنائع كثيرةٌ، بكثرة الأعمال المتداوَلة في العُمران، ومنها البناء والخياطة والنّجارة والحدادة والحياكة...



أمّا بالنّسبة للفلسفَة، فهيَ من العلوم الّتي استُحدِثتْ مع انتشار العُمران تاريخيًّا في المجتمعات. وقد اهتممْتُ كثيرًا بهذا الموضوع، وتعمّقت في دراسته والكتابة عنه. الفلسفةُ هي دراسةُ مسائلَ عامّة وأساسيّة متعلّقة بالإنسان وبحياته؛ يحلّل الفلاسفة الأمورَ المتعلّقَة بحقيقةِ الوجودِ، ويبحثون في تحديدِ القيَم الإنسانيّة وتحليلِ المنطقِ وكيفيّة عمَل العقلِ. إنّه علمٌ تحليليٌّ يحاولُ معرفة أسبابِ الأمور.

إنّ كلمة "فيلسوف" من أصلٍ يونانيٍّ وهي تعني حُبّ الحكمة. أنا أعتقد أنّ البحث في هذا العِلم يستوجِبُ الإلمامَ بعلوم الشّرع حتّى لا يضلّ العقلُ ويتوهَ في مجاهلِ الفكرِ المجرّد.



لي أيضًا مساهمةٌ فعّالةٌ في عِلمِ التّربية الّذي لم يكنْ معروفًا في زمني كعِلمٍ أكاديميٍّ مستقلٍّ. في رأيي، التّعلّم ينقسم إلى نوعين: تعلّمٌ نقليّ وتعلّمٌ عقليّ. هذا يعني أنّ على المتعلّم أن يحفظَ الموادّ الّتي يدرسُها لكن عليه أيضًا أن يفكّر فيها، ويحلّلها بشكلٍ نقديٍّ. يجب أن يكونَ التّعليم متدرّجًا، بحيث يبدأ ا لطّفل بتعلّم الأشياء المحسوسة، وينتقلُ تدريجيًّا إلى التّحليل والنّظريّات المجازيّة. وأحبّذُ أن يبدأ الطّفل بحفظِ بعض سور القرآن الكريم وبعض الأشعار حتّى تقوى قدرتُه على الحفظ، تمامًا كما بدأتُ أنا حياتي الثّقافيّة.



لقد عرضتُ عليكم فكرةً عامّةً عن العلوم الّتي شغلتُ نفسي بها طوال حياتي وتعمّقتُ في دراستها وكتبتُ عنها في العديد من الكتب. أهمّ كتبي حيث أعالجُ مفاهيمَ الفلسفة وعِلم التّأريخ وعِلم الاجتماع وغيرها، هو الكتاب الّذي صار معروفًا بـ "مقدّمة ابن خلدون"، واسمُ هذا الكتاب الكامل هو "كتاب العِبَر وديوانُ المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر".

يتألّفُ هذا الكتابُ من سبعة مجلّداتٍ فيها مقدّمة وثلاثة أجزاء.



قضيتُ آخرَ حقبة من حياتي في مصر حيث أُعِدتُ إلى منصبي في القضاء المالكيّ. ولكنّ القاضي البساطيّ كان منافسًا قويًّا لي؛ لذلك كان كلٌّ منّا يتولّى هذا المنصب بضعة أشهرٍ. كانتْ تلك آخر وظيفةٍ لي. يقولون في الكتب الّتي تتحدّثُ عنّي إنّي توفّيتُ في مصر عام 1406م.



كلمات
KALIMAT